مقياس: النقد الأدبي المعاصر

السنة الثانية: دراسات نقدية

المحاضرة الرابعة: المنهج النفسي في النقد

تمهيد:

يقوم الأدب على التعبير عن الشعور والعاطفة، ويقوم علم النفس على تتبع ودراسة هذه العناصر الشعورية، ويمكن القول إن العلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات؛ لأنه ليس هناك من ينكرها...، إن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس، النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس، والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة، وحقيقة هذه العلاقة ليست شيئا مستكشفا للإنسان الحديث لأنها كانت قائمة منذ أن عرف الإنسان وسيلة التعبير عن نفسه.

وقد كان تقدم أرسطو بمفهوم (التطهير) في حديثه عن أثر المأساة في الجمهور أول معلم حقيقي من معالم الطريق إلى شرح العلاقة بين الأدب والنفس على أساس من المعرفة شبه العلمية، والمؤكد أن الكثير من النقاد والبلاغيين العرب قد لمسوا مظاهر هذه العلاقة على نحو أو آخر، فانتبهوا إلى الظروف التي تواتي النفس فتنشئ الأدب، كما أحسوا بتأثير الأدب في النفس وإثارة ألوان عدة من المشاعر، غير أن كتابات هؤلاء لم تتجاوز مرحلة الإحساس المبهم إلى الشرح الموضوعي، وربما استثنينا هنا 'عبد القاهر الجرجاني' الذي حاول أن يشرح الدلالات النفسية لأشكال التعبير.

ولكن الارتباط الفعلي بين علم النفس ونقد الأدب قد ظهر واستوى في العصر الحديث؛ إذ "يعد الناقد الفرنسي 'سانت بيف' من الممهدين لظهور المنهج النفسي؛ وذلك لأنه ربط بين حياة الأديب وشخصيته ونتاجه، وذهب إلى أننا إذا استطعنا أن نكتسب معرفة بحياة الأديب والمؤثرات الرئيسة فيه، أمكننا أن نصل إلى فهم صحيح لآثاره الأدبية"، ولكنه برز مع سيغموند فرويد الذي يرى أن العمل الأدبي موقع أثري له طبقات متراكمة من الدلالة، ولا بد بالتالي من كشف غوامضه وأسراره.

1- تعريف بالمنهج النفسي:

المنهج النفسي أو التفسير النفسي للأدب أو منهج التحليل النفسي، أو المنهج النفساني، أو المنهج السيكولوجي، مصطلحات تدل على مفهوم واحد؛ إذ تشير إلى ذلك المنهج النقدي السياقي، الذي يتعامل مع الأدب من الخارج اعتمادا على علم النفس، ولكن يمكن أن نفرق فيها بين مصطلحين: منهج التحليل النفساني والمنهج النفسي.

أ- منهج التحليل النفساني:

عرف هذه المنهج "في مطلع القرن العشرين مع تأسيس علم النفس التحليلي على يد فرويد، وصدور دراساته وفي مقدمتها (تفسير الأحلام) سنة 1900م، تلك الدراسات التي كشفت عن قوى النفس الثلاث: الأنا والهو والأنا الأعلى، وأثر الشعور في سلوك الإنسان ومختلف نشاطاته، والعقد والأمراض النفسية التي تصيب الإنسان مثل انفصام الشخصية والنرجسية وعقدة أوديب".

ففرويد يعد الرائد والمؤسس الأول للتحليل النفسي، وقد استعان في هذا التأسيس بدراسة ظواهر الإبداع الأدبي، بوصفها تجليات للظواهر النفسية؛ فالعملية الإبداعية عنده تقوم على "تمييزه بين الشعور واللاشعور بين الوعي واللاوعي، بين مستويات الحياة الباطنية، واعتبار اللاوعي أو اللاشعور هو المخزن الخلفي غير الظاهر للشخصية الإنسانية، واعتباره متضمنا للعوامل الفعالة في السلوك وفي الإبداع".

فهو يرى أن الأعمال الإبداعية ما هي إلا ترجمة لمحتوى اللاشعور الذي ما هو إلا مجموعة من الرغبات غير المشبعة في واقع الفنان أو الأديب والتي تنعكس في أعمالها الفنية، وبذلك يكون اللاشعور حسب فرويد "هو الفرضية الأساسية التي تقوم عليها نظرية التحليل النفسي، وينقسم بدو ره إلى ثلاث قوى متصارعة هي: الهو ويمثله الجانب البيولوجي (اللاشعور)، والأنا ويمثله الجانب السيكولوجي أو الشعوري (الشعور)، الأنا الأعلى ويمثله الجانب الاجتماعي أو الأخلاقي (الضمير).

ولكل من هذه القوى الثلاث وظيفة؛ "فوظيفة الأنا الأعلى على الدوام الضغط أو الكبت، والهو وظيفته على الدوام النزوع إلى المحرم، والأنا حائر بين الأنا الأعلى والهو"، وهذه القوى الثلاثة يكون بينها صراع يتجلى في سلوك الإنسان وفي مواقفه اليومية، وانعكاس ذلك على أعماله

الإبداعي، وهذا الصراع يتم بواسطة ما يطلق عليه فرويد اسم الآليات ومنها القمع والكبت والتسامي. وقد وضع فرويد وفق ذلك الأسس العامة للقراءة النفسية للأدب، وحاول على ضوءها أن يضع تفسيرا لظاهرة الإبداع الفني عن طريق فكرة التسامي النفسي لدى المبدع.

ويتضح أن التحليل النفسي الذي جاء به فرويد اعتمد في تحليله للأعمال الفنية على استكشاف واستكناه ما يحيط بالذات المبدعة من مكبوتات داخلية، ومحاولته سبر تلك المكبوتات بكل ما تحمله من رغبات وعقد نفسية تظل خفية على الشعور، لأن تأثيراتها تتجلى في إنتاجه الأدبي، فهو إذا يركز على اللاوعي بوصفه المؤثر الأول في سلوك الفرد، والأدب والفن عنده تعبير عن اللاوعي الفردي، وتظهر فيه تفاعلات الذات وصراعاتها الداخلية.

ومن هنا يقال إن الأدب يعد مجالا خصبا لاكتشاف حياة الشخص اللاشعورية؛ فالمبدع تأتيه خيالات وأحلام معينة تبدو بصورة ما في آثاره الأدبية، وهذه الخيالات يردها البعض إلى تجارب الطفولة وعقدها، وتظهر بصورة معينة في الأحلام والأساطير.

"إلا أن اهتمامات فرويد الأدبية كانت محدودة، أما تلاميذه فقد قاموا بتطبيق منهجه بشكل منظم ودرسوا المعاني والدوافع اللاشعورية للكاتب، ومن مظاهر ذلك دراسة أرنست جونس في إنجلترا عام 1910م عن (عقدة أوديب) كتفسير لغموض (هاملت)، وفي أمريكا قام فريديريك كلارك في 1916م بعمل دراسة عن (علاقة الشعر بالأحلام)".

ومن بين تلاميذه الذين عارضوه في عده الغريزة الجنسية الدافع الأول للإبداع الفني، نجد كل من 'كارل غوستاف يونغ' و'ألفرد أدلر'.

- **كارل غوستاف يونغ** (1875-1961):

أعلن يونغ انفصاله عن مدرسة التحليل النفسي وشكل اتجاها سماه (علم النفس التحليلي)، دعا فيه إلى دراسة علم نفس الشعوب البدائية وقد سافر إلى إفريقيا والمكسيك والهند، واهتم بالأساطير والقصص الشعبية والفنون والطقوس والأديان عند تلك الشعوب ليصوغ من خلال ذلك رؤيته في أن للبشرية إرثا كونيا مشتركا يسمى (اللاوعي الجمعي)، وبذلك نقل يونج بحثه من اللاشعور الفردي إلى اللاشعور الجمعي؛ إذ رأى أن الرواسب اللاشعورية الجمعية تتجلى في كل رموز، ويتم فهم هذه الرموز في ضوء معرفة النماذج الأسطورية والشعائر للأمم والشعوب.

- **ألفرد آدلر(1870-1937):**

"يشير أدلر إلى مفهوم يسميه (القوة الخلاقة)، وهو يعني بذلك أن البشر قادرون على صنع مصائرهم وتحديد معالم شخصياتهم خلافا لرأي فرويد حول خبرات الطفولة ودورها في إلغاء الإرادة والحرية".

ويرى أن الشخصية يحركها هدف نهائي هو الرغبة في التفوق الذي يتضمن تحقيق الذات وتطورها، ولهذا يرى أن الشعور بالنقص يدفع الإنسان للبحث عن وسيلة ليحقق بها عن شعوره بالدونية فيلجأ إلى التعويض"؛ فهو ينظر إلى الأدب باعتباره وسيلة لتحقيق الذات التي تعيش عقدة النقص داخل المجتمع.

ب- المنهج النفسي:

والمقصود بالمنهج النفسي في النقد "أن تقف من النص الأدبي على ما يتضمنه من عواطف وانفعالات وأخيلة... ما بين حب وكره، وحسد ورحمة وخوف مواقف محرجة، وهذه العناصر هي في صميم التكوين الأدبي، ولا يمكن أن يخلو منها نص في أي عصر وعلى أي مذهب، وهي تمنح النص قوة وتعطيه خصوصية، تكون له جزءا لا يتجزأ من الجمال وعوامل النجاح، وناقد هذا المنهج يقف يسبر غور النص الأدبي ويستقرئ ما يحتويه هذا الغور من نفس الأديب، وما يعكسه في نفوس الآخرين، وهو أمر لا بد منه لاستكمال جوانب العملية النقدية".

"فالناقد هنا يتعامل مع الفن، وقوام الفن الحياة، وقوام الحياة نفس الفنان، وما انطبع في نفسه من آثار الطبيعة والمجتمع فملأها عاطفة وأثارها خيالا حتى باتت الألفاظ والصور مشحونة قوة وتأثيرا.

وهذا ما يعرف بالتفسير النفسي للأدب، وهو يقوم على تحليل النص الأدبي من حيث الوقوف على شخصيات الأدباء وخصائص شخصياتهم اعتمادا على كتاباتهم وأحداث حياتهم واعتبار العمل الأدبي صورة تعكس حياة الأديب وسماته الشخصية عن طريق تطبيق نتائج علم النفس الحديث على شخصيات الأدباء ونتاجهم الأدبي.

ويعد الناقد الفرنسي شارل مورون (1899-1966) من الشخصيات التي حققت التلاقي بين النقد الأدبي وعلم النفس (التحليل النفسي)؛ إذ "حدد للنقد النفساني موضوعه عندما جعله يهتم بشخصية الأديب وتاريخها باعتبارها أحد العوامل الثلاثة التي تتدخل في الإبداع الأدبي وتؤثر فيه".

وقد درس مورون الآداب الإنجليزية إلى جانب العلوم الإنسانية والتجريبية عامة وعلم النفس خاصة، وفي عام 1941م استطاع أن يجري دراسة على الشاعر الفرنسي 'مالارميه'، ونشر في عام 1957م دراسة مهمة عن الشاعر بعنوان (من الاستعارات إلى الأسطورة الشخصية)، ثم دراسة بعنوان (النقد النفسي للفن الكوميدي) عام 1964م وغيرها من الدراسات والمؤلفات التي عدت مساهمات قيمة في النقد الأدبي من جهة والتحليل النفسي من جهة أخرى؛ إذ اتجهت إلى تعميق الفهم لدور مخبآت اللاشعور في تشكيل الآثار الأدبية، ودلالات لاوعي الكاتب في نصوصه الإبداعية.

فهو يدعو إلى النظر إلى الأدب "باعتباره ظاهرة فنية لغوية لا وثيقة معرفية (...)، ومورون ليس محللا نفسيا وهو نفسه يؤكد ذلك، ويرى أنه ليس أكثر من ناقد أدبي أدبي قد أخذ على عاتقه التزام حدود مبحثه الجمالي، إلا أنه قد حرص على دعوة الناقد إلى توسيع مفاهيمه الأدبية والتنقيب في مخبآت النفس اللاشعورية للمبدع، عن طريق شبكة الاستعارات والصور البلاغية المضمرة في بناء أثره الأدبي".

بحيث يركز على النص الإبداعي، وضمن ذلك يهتم بشخصية المبدع وأثرها في إنتاجه، في حين مدرسة التحليل النفسي (فرويد) تركز اهتمامها على الجانب النفسي لشخصية المبدع وتنظر إلى إنتاجه الأدبي على أنه من آثارها.

2- خصائص المنهج النفسي في النقد:

تتحدد خصائص المنهج النفسي من كونه يتكفل بالإجابة على مجموعة من الأسئلة في دراسته وهي: كيف تتم عملية الخلق الأدبي؟ وما هي طبيعة هذه العملية من الوجهة النفسية؟ ما العناصر الشعورية وغير الشعورية الداخلة فيها وكيف تتركب وتتنافس؟ ما دلالة العمل الأدبي على نفسية صاحبه؟ كيف نلاحظ هذه الدلالة ونستنطقها؟ هل نستطيع خلال الدراسة النفسية للعمل الأدبي أن نستقرئ التطورات النفسية لصاحبه؟ كيف يتأثر الآخرون بالعمل الأدبي عند مطالعته؟ وصولا إلى أن إبداع الفنان هو نتيجة الرغبات المكبوتة التي تنقل من مركز اللاشعور إلى النص الأدبي.

وعليه يمكن إجمال خصائص المنهج النفسي في العناصر الآتية:

- يعرف شخصية الأديب من خلال شعره وما تتسم به نفسيته من فرح وألم وحزن .

- تفسير الظواهر الفنية و الجوانب الجمالية استنادا إلى عوامل نفسية.
- تطبيق نتائج علم النفس على شخصيات الأدباء و نتائجهم الأدبية.
- البحث في أثر البيئة على شخصية الأديب عند التحليل.

من هنا يصبح المنهج النفسي "وسيلة يعتمدها الناقد النفساني لاختراق المحيط النفسي للمبدع انطلاقا من إبداعه؛ فهو بهذا يخضع النص الأدبي للبحوث النفسية ويحاول الانتفاع من النظريات النفسية في تفسير الظواهر الأدبية والكشف عن عللها وأسبابها ومنابعها الخفية وخيوطها الدقيقة، وما لها من أعماق وأبعاد وآثار ممتدة".

3- المنهج النفسي عند النقاد العرب:

كانت بدايته أو ملامحه الأولى مع طه حسين، والعقاد فالأول تأثر كثيرا برؤية الناقد الفرنسي سانت بيف التي تركز كثيرا على السيرة الذاتية لصاحب النص، يتجلى ذلك فيما كتبه الأول عن المعري والمتنبي، وما كتبه الثاني عن ابن الرومي وأبي نواس.

تلك الدراسات التي كانت عبارة عن استنباط لشخصية هؤلاء الّشعراء، وما ينعكس عليها في كتاباتهم وأعمالهم الإبداعية وبالتالي، فقد كان لهاتين الدراستين ناحية تطبيقية، أما من الناحية النظرية فنجد كتب أمين الخولي ومحمد خلف الله، إذ ألف هذا الأخير كتابا بعنوان (من الأوجه النظرية في دراسة الأدب ونقده) سنة 1974م؛ أكد فيه الصلة بين الأدب وعلم النفس مستدلا على ذلك من التراث العربي والدراسات العربية المعاصرة والأجنبية، في حين نشر أمين الخولي (البلاغة وعلم النفس) سنة 1939م.

وفي سنة 1963م ألف الدكتور عز الدين إسماعيل كتابه (التفسير النفسي للأدب)، كما اهتم الدكتور مصطفى سويف بالجانب التطبيقي في التفسير النفسي لعملية الإبداع وذلك في كتابه (الأسس النفسية للإبداع الفني) مركزا فيه على الشعر خاصة.